اصول الحضارة الهندية القديمة

مكتشفات اثرية باهرة

للسر جون مارشال مدير البحث الاثري في الهند

قلما يوفَّق الباحثون الاثريون الى ازاحة الستار عن حضارة كاملة مدفونة كما وُفِّق شليمان الالماني في بلاد اليونان واڤانس الانكليزي في جزيرة كريت . ولكن ظهر الآن ان الباحثين الاثريين في الشمال الغربي من بلاد الهند في ولايتي البنجاب والسند قد وفقوا الى مكتشفات اثرية خطيرة الشأن قد تكشف القناع عن اصول حضارة هندية قديمة اطلقوا عليها اسم حضارة السند

وقد جرى النقب في موضعين اولهما يدعى هارپّا في البنجاب والثاني موهنجودارو في السند والمسافة بينهما نحو اربعمائة ميل فعثروا على آثار مدن في طبقات متراكم بعضها فوق بعض يظهر منها ان تلك البلاد كانت آهلة عامرة منذ اكثر من ٤٧٠٠ سنة . وقد وصف السر جون مارشال هذه المكتشفات وما يستدل منها عن حضارة العصر الذي نشأت فيه في جريدة اخبار لندن المصوّرة فذكر اولاً مكان البحث في موهنجو دارو فاذا هو يشغل ارضاً مساحتها اكثر من ثلاثة عشر فداناً وجدوا فيها آثار ثلاث من احدث المدن التي بنيت هناك في ثلاث طبقات متراكمة . ومن اغرب المباني التي كشفوها بناية ضخمة تحتوي على حوض كبير كان يستعمل حمّاماً جرياً على بعض الطقوس الدينية او لحفظ بعض التماسيح او الاسماك المقدسة . وطول هذا الحوض ٣٩ قدماً وعرضهُ ٢٣ قدماً وعمقهُ تحت مستوى ارض البناية ٨ اقدام . وعلى كل من جانبي الحوض سلّم للنزول به الى الماء . وارضهُ وجدرانهُ مرصوفة بلاط دقيق الصنع وعلى جانب كبير من الاتقان . وقد بنيت الجدران بالطوب ولصقت بطين جيري وطلي الجدار الداخلي من خارجهِ بالقطران منعاً لتسرب الماء . ويتصل بهذا الحوض مصرف كبير مسقوف بقنطرة ارتفاعهُ ست اقدام ويصل بماء الحوض الى خارج المدينة . وعلى مقربة من هذا الحمام الفخم حمام آخر شبيه بهِ ولكنهُ لم يحفظ سليماً من الاذى

وقد عثروا ايضاً على آثار مبانٍ صغيرة للسكن ومخازن للبيع مما يدلّ على ان ما بلغهُ الفرد في ذلك العصر من الحرية والتقدم يفوق ما بلغهُ من هذا القبيل على ضفاف

دجلة والفرات والنيل ومع ان المستر ولي كشف مؤخراً في اور الكلدانيين مباني من هذا القبيل الا انها لا تقارن بالمباني التي كشفت في موهنجودارو من حيث الاتقان وينقصها نظام المصارف الذي به كانت تجمع المياه القذرة من الحمامات المختلفة في احواض كبيرة في الشوارع ثم تنقل الى خارج البلدة

ولما كان هناك شبه كبير بين آثار هذه الحضارة وآثار الحضارة السومرية القديمة فقد كنا اطلقنا على الحضارة التي كشفت آثارها في موهنجودارو وهاريا اسم الحضارة الهندية — السومرية . ولكن بعدما توغلنا في البحث ثبت لنا ان سبب هذا التشابه ليس وحدة الحضارتين بل التبادل التجاري بين البلدين . فعدلنا الى «حضارة السند»

تاريخها

كشفت اختام هندية في سوسا ببلاد فارس تشير الى هذه الحضارة ومن الموقع الذي وجدت فيه يستدل على انها تعود الى قبل عهد سارغون الاول اي قبل سنة ٢٧٠٠ ق . م . وقد وجد حديثاً ختم في اور عليه ما على بعض هذه الاختام ولكنه منقوش بالخط المساري الذي يعود الى العهد المذكور . وعليه نستطيع ان نستنتج ان هذا النوع من الاختام خاص بالنصف الاول من الالف الثالثة قبل المسيح او قبل ذلك . ولما كانت هذه الاختام مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمدن التي كشفت في موهنجودارو لكثرة ما كشف منها فيحق لنا ان نجعل تاريخ هذه المدن يتراوح بين سنة ٣٥٠٠ و ٢٥٠٠ ق . م ولا يعلم على وجه من الدقة الزمن الذي انقضى على قيام هذه المدن وسقوطها ولكننا نرجح اننا لا نكون بعيدين عن محجة الصواب اذا جعلنا تاريخ المدينة العليا سنة ٢٧٠٠ ق.م . وتاريخ التي تحتها سنة ٣٠٠٠ ق.م . وتاريخ الثالثة التي تحتها سنة ٣٣٠٠ ق . م . اما مدن هاريا فالعليا منها معاصرة لهذه المدن واما المدن التي تحتها فاسبق عهداً ولكننا لا نستطيع تعيين تاريخ هذا العهد

اجناس السكان

وما هو جنس هؤلاء الناس الذين خلقوا حضارة السند ؟

لا نستطيع الاجابة عن هذا السؤال اجابة صحيحة لان مباحثنا لم تتقدم تقدماً يكفي لذلك . وقد وجدنا كما كنا ننتظر ان اكثر الهياكل العظمية التي عثرنا عليها تدل على ان اصحابها من شعب مصفح الرأس (Dolechocephalic) [1] أي يصح ان

(١) ترجمة العلامة فهر الجاري . انظر مقتطف اغسطس ١٩٢٦ ص ١٧٤ .

تنسبهم الى الاجناس المستطيلة الرؤوس التي كانت تقطن جنوب اسيا واوربا والتي يطلق عليها اسم شعوب البحر الابيض المتوسط . ولم نعثر سوى على جمجمة واحدة من نوع الجماجم المدوّرة[٢] Brachycephalic واما التماثيل التي عثرنا عليها فتمثل اناساً رؤوسهم مدوّرة مثلها . ولكن ما لدينا من المعلومات حتى الآن لا يكفي للوصول الى نتائج مقرّرة في هذا الموضوع

النسيج واللبس

ان وجود مغازل كثيرة وقطع من القطن المنسوج نسجاً دقيقاً في اطلال المدن التي كشفنا عنها يدلّ دلالة قاطعة على ان سكانها كانوا يغزلون وينسجون ولا يخفى ان اسم القطن في اللغة البابلية «سندهو» وباللغة اليونانية « سندُن » وكلا اللفظين يشيران الى وادي نهر السند كموطن القطن الاصلي . ولكن بعض الباحثين كانوا مرتابين في ذلك وقال بعضهم ان القطن الذي استعملهُ البابليون واليونان جنوهُ من اشجار قطن غير شجيراته المعروفة الآن . فجاءت مكتشفاتنا بالقول الفصل وقطعت جهيزة قول كل خطيب . لان القطن الذي وجد في موهنجودارو من النوع الثاني ولهُ كل مميزاته

وكان لباس الرجال منهم يشتمل على قطعتين من الثياب وداء يربط حول الوسط وشال عاطل أو مزخرف يرفع الى الكتف الايسر ماراً من تحت الابط الايمن فتحفظ الذراع اليمنى مطلقة . وكان الرجل يطلق ذقنهُ ويعارضه احياناً واما شعر الشاربين فكان يحلقهُ احياناً ويحفظهُ اخرى . وكان شعر الرأس يجمع ويعقص في مؤخر الرأس . وقد عثرنا على رأس تمثال لامرأة مثّل فيها شعرها مسترسلاً على كتفيها وظهرها . ولا نعلم من ذلك هل كان هذا الزي فاشياً حينئذٍ . وكان الرجال من الطبقات الدنيا يذهبون عراة والنساء تلبسن ما يستر عوراتهن فقط مع اننا عثرنا على تمثال فتاة راقصة عارية كل العري . وكان كل الناس على اختلاف طبقاتهم رجالاً ونساء يتحلون بالحلي المختلفة — عقود وخواتم وزنانير . وانفردت النساء بلبس الخلاخل

حيواناتهم الداجنة والبرية

وكان من حيواناتهم الداجنة الثور والجاموس والضأن والخنزير والكلب والحصان والفيل ولم نعثر على اثر ما للجمل ولا للقطة . اما الحيوانات البرية فمنها الفهد والفيل ووحيد القرن . ولم نعثر على اثر ما يشير الى وجود الاسد

(٢) ترجمه ايضاً

زراعتهم

لم يكن في الامكان ان تنهض مدن كبيرة زاهرة كمدينتي موهنجودارو وهاريا في ذلك العصر الا في بلاد زراعية اتقن اهلها الزراعة الى حدّ بعيد. ومع ان ما كشفناهُ حتى الآن عن اساليب الزراعة والري المستعملة حينئذٍ لا يزال ضئيلاً جداً فلا بدَّ من الاشارة الى ان انواع الحنطة التي وجدت في موهنجيودارو هي هي انواع الحنطة التي في بلاد البنجاب الآن. وقد ثبت لنا من اختبارات مختلفة ان مقدار ما كان يهطل من المطر سنويًّا في السند وغرب البنجاب كان أعظم مما هو الآن. وان السند كانت تروى حينئذٍ من نهرين لا من نهر واحد وانها كانت كذلك اخصب مما هي الآن واقل عرضة لآثار الفيضانات وما تتركهُ في اثرها من الخراب

طعامهم

وكان سكان هاتين المدينتين يشربون اللبن ويأكلون الخبز ولحم الغنم والبقر والخنازير والسلاحف وسمك نهر السند الطازجة والسمك المقدَّد محلوباً من شواطىء البحر. والادلة على ذلك وجود انواع مختلفة من العظام في بيوت مختلفة ساعدتنا في تحقيق الحيوانات الخاصة بها الماجور سول مدير قسم الحيوانات في حكومة الهند ومعاونوهُ

الحلي

كانت الحلي التي يتحلّى بها الاغنياء من الذهب والفضة او النحاس المطلي بالذهب والفيشاني الازرق والعاج والعقيق والجشم وحجارة ملونة مختلفة. أما الفقراء فكانوا يستعملون الصدف والتراكوتا. وقد عثرنا على أمثلة كثيرة مختلفة من هذه الحلي وتلك أخص بالذكر منها عقداً من العقيق والنحاس المطلي بالذهب ومنها اقراط وابرٌ من الذهب الخالص مصقولة صقلاً يفتخر به امهر الصاغة في هذا الزمان

المعادن

ومن المعادن التي كانوا يستعملونها عدا الذهب والفضة والنحاس القصدير والرصاص فقد كانوا يستعملون النحاس بكثرة في صنع اسلحتهم وادواتهم البيتية فيصنعون منهُ الخناجر والسكاكين والفؤوس والمناجل والازاميل والآنية وادوات الزينة على اختلافها كالاساور وما اليها. وكانوا يأتون به من بلوخستان غرباً وراجپوتانا شرقاً وافغانستان شمالاً. اما القصدير فكان يصعب الحصول عليهِ والمرجح انهم كانوا يستوردونهُ من خراسان او من الغرب عن طريق سومر في ما بين النهرين

ولم يستعملوا القصدير صرفاً بل مزجوه مع النحاس وصنعوا منهُ البرونز واستعملوهُ في صنع أدوات القطع الحادة كالازاميل والمناشير وفي صنع التماثيل الصغيرة والازرار والحرز الدقيقة وغيرها من الحلي ورغماً عن تفوق البرونز على النحاس الصرف من حيث ملاءمته لصنع الادوات المذكورة فان ما صنع منهُ قليل جداً لصعوبة تناوله وغلاء ثمن القصدير

الاسلحة والمكاكين

ومن الغريب اننا لم نعثر حتى الآن إلاَّ على بضع فؤوس ومناجر ورؤوس سهام ورماح . فيظهر ان سكان هذه المدن لم يكونوا رجال حرب . ومع انهم اكثروا من استعمال النحاس في صنع ادواتهم عثرنا على كثير من الادوات الحجرية مما يدل على ان آثار العصر الحجري الحديث كانت لا تزال فاشية بينهم . فقد كانوا يصنعون من حجر صلد من نوع اليصب ادوات الصقل واوزاناً لها نظام هندي خاص يختلف عن نظام البابليين والعيلاميين . وكانوا يجلبون كثيراً من الصدف من شواطىء البحر لتقطع وتنظم في عقود وتصنع منها حلي مختلفة وتستعمل في صناعة تنزيل الخشب. ولهم قيشاني ازرق يماثل قيشاني ما بين النهرين ومصر استعملوهُ كثيراً في صنع الحلي والكؤوس الصغيرة والعقود وما اليها

الخزف

اما ادوات البيت العادية فمن خزف عادي . واشكالها مختلفة ودقيقة الصنع مما يدل على ان صناعة الخزف كانت قديمة جداً وانهُ كان قد انقضى عليهم زمن يمارسونها حتى اتقنوها . ولكن من الغريب ان اكثر الآنية الخزفية لم يكن لها حلقات تستعمل كقابض واكثرها احمر اللون غير مزخرف وبينها ما هو مزخرف ومدهون بالوان مختلفة ولكنهُ قليل واكثر الرسوم سوداء وهي رسوم هندسية وبعضها رسوم حيوانات. وقد عثرنا على آنية في موهنجودارو مزخرفة برسوم حمراء وبيضاء وسوداء . وبعض هذه الرسوم يدل على اتصالهم ببيلام وما بين النهرين وبلوخستان

الكتابة

ان وجود الاختام المنقوشة في كل بناية كشفناها تقريباً يدلُّ على ان سكانها كانوا عارفين بفن الكتابة ويرجح لدينا انهم كانوا يستعملونها في التجارة وغيرها مع اننا لا ندري حتى الآن ما هي المواد التي كانوا يستعملونها مكان الصلصال الذي كانت تصنع منهُ الاختام. وربما استعملوا لذلك الخشب او لحاء بعض الاشجار مما يشبه البردي المصري